حول كتابة تاريخ العرب في أوربا

الاستاذ الدكتور نافع توفيق عبود التكريتي
قسم التاريخ في كلية الآداب – جامعة بغداد

إن أهم ما أهمله المؤرخون المحدثون ، هو إبراز دور العرب في القارة الأوربية – خارج الأندلس – وأن هذا الدور المهم يكاد يكون مجهولاً عند أبناء العربية الذين لا يعرفون عنه قليلاً أو كثيراً . وجدير بكل مؤرخ عربي نزيه أن يبحث عن آثار قومه التي خلّفوها في كل صقع وطأته أقدامهم . وإن كان البحث في ذلك يرافقه تجشم عناء .

ومن المؤسف حقاً ، أن الكثير من الكتاب والمؤرخين المحدثين عندما يدرسون طرق انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا ، فإنهم يذكرون الأندلس وصقلية والحروب الصليبية فحسب ، ويتنافسون أو يهملون طرقاً أخرى أهمها : التجارة والرحالة وأنشطة الحملات العربية القليلة الأعداد التي كان لها التأثير الفعال في إيصال الإسلام والحضارة العربية إلى مناطق شرق أوربا ووسطها، بل زإلى مناطق قصيّبة منها .

لقد تجاوزت حملات العرب المسلمين بلاد الأندلس إلى فرنسا وجنوب إيطاليا وتلك حقيقة تاريخية لا سبيل إلى نكرانها حتى من قبل المؤرخين الأوربيين، إذا استطاع العرب أن ينفذوا إلى جبال الألب ووقفوا في أعلاها ، ثم أحكموا سيطرتهم على معابرها كلها ، وبعد ذلك صاروا يجوبون في أنحاء سويسرا بلا معارض كلأنهم في ديارهم . وفي جبال الألب بنوا أبراجاً في أماكن متعددة يقال أن آثارها لا تزال موجودة وعليها بعض الكتابات العربية التي لم تمحها عوادي الزمن . ويظهر أن الاستقرار الحقيقي لهؤلاء العرب المسلمين هناك ، إنما كان في بعض المعاقل الحصينة ، وأنهم كانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور [١] ، ولا شك أنهم اشتغلوا بالزراعة ليكسبوا لقمة العيش . ولا يستبعد أيضاً أنهم تغلبوا على بعض القرى الصغيرة واتخذوها مركزاً، ما دام أمرهم قد تطلب إقامة دائمية وطويلة .

بها النيران ليلاً على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذا النيران بوقوع الحرب وطلباً للمدد وجمعاً للقوة . هذا إلى ما وجد من آثار العرب الأخرى المتمثلة بالأطالس الحريرية والأسفاط الثمينة المصنوعة من العاج والفضة . وكذلك الأسلحة المتميزة النفيسة، ولا يزال منها نماذج مجفوظة في خزائن الكنيسة [٥] .

ولم يكن مقام العرب في جنوب فرنسا خالياً من تأثير طرق الزراعة، فأصلحوا الأراضي وشقوا القنوات لإروائها، ومثل ذلك امتدت نواحي التأثير إلى الجوانب العمرانية الأخرى .

أما عن تأثير العرب في إيطاليا، فأنه كان أكثر وضوحاً من جهة صقلية التي فتحها المسلمون منذ العصر الأموي ، والذي تزامن فيها بعد بتأثير آخر جاءها من جهة إسبانيا (الأندلس) ، غير إننا نريد التأكيد هنا على الوقت الذي اجتاز فيه العرب جبال الألب وتوغلوا في أرض إيطاليا، ويرى بعض المؤرخين الأوربيين أن ذلك قد وقع على كل حال في أوائل القرن العاشر الميلادي وتحديداً في سنة ٩٠٦م [٦] ، ومن ثم توالت حملات عربية أخرى . تمكنت من سلسلة جبال الألب سواء من الشمال أو الغرب ، وهذه الحالة إنما تتجلى فيها القوة التي تمكن بها العرب في ذلك الوقت من الإستيلاء على تلك المعابر في الأزمنة الأولى ، ولم يتقاضوها بعدها مما يدل على استقرارهم في القرى وممارستهم الزراعة .

لم تمدنا المصادر بمعلومات توضح لنا مدى تأثير العرب في شمالي إيطاليا خاصة ، وأغلب الظن أن حملاتهم كانت قليلة الأعداد وهي تجاهد أعداءً مطيفين بها . ولعل أهم أثر خلفته هو كتابات بالعربية على بعض الأحجار، مع بعض الأسماء العربية الأصل تداولها الإيطاليون هناك منها الماجل (حوض الماء) والعين وعين الماء وغيرها [٣] .

أما في سويسرا ، فإن العرب المسلمين واطأوا أرضها بانحدارهم إليها من قمم جبال الألب ، وقد أطلق أهل البلاد عليهم تسمية سارازين (أي الشرقيين) . وهناك خلفوا آثاراً تشهد على توغلهم في البلاد وتأثيرهم فيها، ففي مقاطعة لوزان مثلاً يجد الباحث شيوع أسماء عربية بين أهلها منها : (برج العرب) ، و(دهليز العرب) و(حائط

العرب) ، ويمكن أن يلمس الباحث أثر العرب هناك في المسكوكات العربية التي عثر عليها في سويسرا ، وتواريخ بعضها يعود إلى زمن الهادي (ت ١٧٠ هجرية) والرشيد (ت ١٩٣ هجرية) وهما من خلفاء بني العباس [٨] .

كذلك عثر على نقود أخرى وعليها كتابات عربية بأسماء بعض ولاة القيروان ونصوص آيات قرآنية [٩] . ويرجح أن تكون هذه النقود قد وصلت إلى سويسرا بطريقة سلمية أي كثمن لبضائع تجارية .

التأثيرات العربية الإسلامية في شرق أوربا ومناطق أخرى :

ذكرنا سابقاً أن شرق أوربا كان معبراً آخراً لإيصال الإسلام إلى مناطق أخرى في أوربا وبخاصة بعد أن أعلن البلغار إسلامهم في مستهل القرن الرابع الهجري .

ونرى أن دراسة علاقات المسلمين الحضارية بشرق أوربا من الموضوعات التي لم تحض بدراسات عميقة تضع تلك العلاقات في موضعها الصحيح والمؤثر في مسار التاريخ الشرقي لأوربا . ولا يخفى ما للتجار المسلمين من تأثير عميق في توثيق العلاقات التجارية ودخول الإسلام إلى بلاد الخزر والبلغار والروس [١٠] .

ويمكن أن نلمس أهمية طريقين رئيسيين في انتقال الإسلام والحضارة العربية إلى تلك البلاد ، ونعني بهما طريق بحر قزوين (الخزر) ونهر الفولي (أتيل) [١١] وكذلك طريق القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطينيين التي وصفت بأنها مدينة ذات نشاط تجاري كبير بسبب توافد التجار إليها من مختلف الجنسيات ففيها التجار من " بابل ، مصر وروسية وهنكارية وخزرية " [١٢] .

كان للتجار والرحالة الدور الكبير في لإيصال الإسلام إلى أقوام الخزر زالبلغار والروس ، فالإنسان العربي المسلم كان صاحب مهمات مزدوجة، فالتاجر المسلم وهو يمارس العملية التجارية في البيع والشراء ، يعمل على نشر الإسلام من خلال التعريف بمبادئه وأخلاقياته ونزعته الإنسانية، والرحالة يجوب المدن والأقاليم التي يشد الرحال إليها ، وفي ذات الوقت يعرّف ويعلم الناس فرائض الإسلام ونظمه . وهذا القول ينطبق تماماً على الرحالة الذين زاروا مناطق شرق أوربا ونخص بالذكر هنا رحلة أبن فقلان [١٣] ورحلة الغرناطي [١٤] .

لقد أسهم مسلمو شرق أوربا وبخاصة البلغار منهم في إيصال الإسلام إلى ديار أوربية زاروها لأغراض تجارية بالدرجة الأولى فبعد أن أصبحت بلاد البلغار موئلاً مهماً للإسلام في شرق أوربا عمد بعض مسلميها بمهمة نشر الدين الإسلامي في بلاد مجاورة لبلادهم ومنها هنكاريا ، وإذا بلغنا مستهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وقفنا على ذكر أكثر من ثلاثين بليدة هنكارية خاصة بالمسلمين، ونستمع إلى ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هجرية / ١٢٢٨م) وقد ذكر هذه الطائفة بقوله : " وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية ، شقر الشعور والوجوه جداً ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة ، رض عنه ، فسألت رجلاً منهم استعلمه عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الأفرنج يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية لملكهم في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة ، إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها مسوراً خوفاً من ان نعصي عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية " (١٥) .

ويستطرد ياقوت قائلاً : " فسأله عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ؟ فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار . وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام ، فهدانا الله ، والحمد لله، فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا ، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه ، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمر دينهم " (١٦) .

كان من نتائج انتشار الإسلام في شرق أوربا. إن حتم على المسلمين مسلمي الخزر والبلغار والروس معرفة القرآن الكريم والإطلاع على العلوم الإسلامية ، مما ساعد على انتشار اللغة العربية في المناطق الأوربية الشرقية والمجاورة لها ، وأكثر من هذا فقد قصد بعضم بغداد حاضرة الخلافة وأخذوا عن شيوخها وعلمائها علوماً بثوها – بلا شك – بين المسلمين في بلادهم ؛ وهذا دليل على التواصل الثقافي بين بلاد الإسلام .

الخلاصة :

بلغار الفولجا – مجلة المؤرخ العربي – العدد ١٥ لسنة ١٩٨٢ – ص ٢٠٨ فما بعد .

(٣) عبد الرحمن عزام ، البلغار المسلمون ، مجلة الثقافة العدد ٢٦١ (القاهرة ، ١٩٤٣) ، ص ١٦٥ فما بعد .

(٤) شكيب ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٥) المرجع نفسه : ص ٢٣٧ .

(٦) المرجع نفسه : ١٦٧ فما بعد .

(٧) المرجع نفسه : ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٨) المرجع نفسه : ٢٦٩ .

(٩) المرجع نفسه : ٢٧٠ .

(١٠) فاضل كاظم صادق العبادي ، العلاقات التجارية والثقافية العربية الإسلامية بشرق أوربا (الخزر ،البلغار ، الروس) خلال العصور العباسية، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة – كلية الآداب – جامعة بغداد ، ١٩٩١ : ص٦٣ فما بعد .

(١١) أبن حوقل ، محمد بن علي اليعبي (ت ٣٦٧ هجرية) صورة الأرض (دار مكتب الحياة – بيروت) ، ص ٣٣٠ .

(١٢) التطيلي، بنيامين بن يونه (ت ٥٦٣ هجرية) رحاة بنيامين ، ترجمة عزار حداد (المطبعة الشرقية – بغداد ، ١٩٤٥) : ص ٧٨ .

(١٣) أبن فضلان ، أحمد بن فضلان بن العباس ، الرحلة ، تحقيق سامي الدهان (المجمع العلمي العربي – دمشق ، ١٩٥٩) .

(١٤) الغرناطي ، أحمد بن عبد الحيم القيسي ، الرحلة (مدريد ، ١٩٥٣) .

(١٥) ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ، معجم البلدان (دار صادر – بيروت ، ١٩٥٧) : ١ / ٣٢٣ .

(١٦) المصدر نفسه : ١ / ٣٢٣ .